مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد الخامس ربيع الثاني – جمادى الآخرة ١٤٢٤ هـ يونيو – أغسطس ٢٠٠٣ م

- البناء والكراء في سوق المناخة بين المنع والإباحة
- أمراء المدينة المنورة في النصف الأول من العهد العثماني
- الحياة الثقافية في المدينة المنورة في العهد المملوكي
- جماليات المكان ـ العقيق نموذجاً ـ قراءة في شعر شعراء المدينة المعاصرين
- رحلة ابن بطوطة إلى المدينة المنورة

جماليات المكان

العقيق نموذجًا : قراءة في شعر شعراء المدينة المنورة المعاصرين

محمد الدبيسي

أديب وناقد سعودي

مدخل

تأسست أسرة الوادي المبارك عام ١٣٧٣هـ على ضفاف وادي العقيق بالمدينة المنورة ، ولم تسجل مراجع تاريخ الأدب في المملكة قبل هذا التاريخ جماعة أو منتدى أدبيًا تشكل بجهود فردية غير مؤسساتية سوى هذه الجماعة .

ويمثل أعضاء هذه الجماعة ركيزة ريادية لتاريخ الأدب في المملكة ، ولا سيما محمد هاشم رشيد ، والدكتور محمد العيد الخطراوي ، وحسن مصطفى صيرفي .

والسؤال الذي يتبادر إلى قارئ التاريخ الأدبي : هل ثمة بواعث بيئية ، أو محركات اجتماعية تشكلت في أفق هؤلاء الشباب حينذاك وعيًا بأهمية قيام منتدى أدبي؟أم كانت تداعيات متجانسة مع الرغبة العفوية بالسمر والاجتماع؟

إن المتأمل للمناخ البيئي الزاخر في شعر حسن الصيرفي يلمح مدى تمثله العميق للبيئة المجتمعية والمورفولوجية ، ببناها التقليدية وزخمها الفطري بالمدينة المنورة ، الأمر الذي تستجيب له (أسرة الوادي المبارك) في تمثلها للدور الثقافي الفاعل والمنتج ! والذي تبعثه حركية البيئة المدنية ، وتمثل أسرة الوادي المبارك مثاله ونموذجه .

والصيرفي ؛ المولود في المدينة عام ١٣٣٦هـ[1] ، والذي نزع منذ بواكير شبابه إلى الامتزاج مع البيئة الثقافية للمدينة المنورة ، يصور أمكنتها شعرًا ، ويتعالق نصيًا مع مكوناتها الجمالية ، وصبغتها ، بفعل الحركة اليومي ، بوعي اجتماعي وثقافي متجاوز في رؤيته ، سلس مبسط في بنائه وتشكيله ؛ يكاد

---

(١) أحمد سعيد سلم ، موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين خلال مائة عام ، ص ٣٢٤ ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠هـ ، مطبوعات نادي المدينة المنورة الأدبي .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

شعره في دواوينه الثلاثة (شبابي) و (دموع وكبرياء) و (قلبي) يؤسس لرصيد بيئي مكاني شفيف ، وجغرافيا اجتماعية تمزج العشق العرفاني الفيضي بالوصف الشاعري المجنح ، وتُكوِّن عبر هذا الوصف دراما حركية للحياة ، تصور تفاعلاتها ، وتجاذب أطرافها ، كما تستنتج دقائق تكويناتها المجتمعة داخل الشعور الإنساني ، والتي تتكشف بفحواها الطازجة الحميمة ، من خلال نصوص الصيرفي ، فعندما يصف حي (التاجوري) – أحد أقدم الأحياء الشعبية بالمدينة – وصفاً يستقصي أبعاد المكان الجمالية ؛ يعطي لتلك الجمالية شأوها المعمق في الذاكرة الشعرية ، التي تستعيد مشاهداتها على نحو يبعث على التأمل والشجن :

يا سحر زمان التاجوري
وليالي أيام غروري
ذكراك تجوب دروب دمي
وتسامر إحساس شعوري
من لي بشفيع يشفع لي
كي أدخل (حوش التاجوري)
أمنية كيف يُؤمِّلها
حي ، من حي مقبور
في (المحمودية) كم رقصت
أغصان البان (الطنبوري)
ومكينتها تقرع (دن دن)
من نقر دفوف الماطور
تمتص الماء طرمبتها
ليصب (بقف) محجور
في هيئة قوس من ماس
يتألق في وهج النور
والنغري مع العصفور
مع القمري والشحرور
غنوا في الروضة أغنية
قد سلبت حذر الناطور[1]

(١) حسن مصطفى صيرفي ، (على أطلال التاجوري) نص مخطوط .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فهذا المزاج الشعري مؤتلف مع غنائيته التي تتبدى هنا بوصف المشهد المنظور ، واستجابة الذات الشعرية لجزئياته ، والذي لا يتماس كثيرًا مع رؤية شعرية معقدة ، أو اعتساف الذات في تعقيداتها النفسية ، بل يحتوي اللحظة الشعورية في حال تصورها المرن ، والحساس للصورة المنظورة والمشاهدة أمامه ، والتي يستوعب تفاصيلها الحركية ، ويتملى انعكاسها على حاسته الشعرية .

كما ينسج معجمه الشعري من اليومي الفصحوي الدارج في مفرداته المنشورة على مساحة المستعمل القريب .

ومحاولة لشعرنة (العامي) الدارج في السياق الشعري ، المؤسس على ذائقة بيئية مرنة ، تحول اليومي / الممارس إلى شعري يتلمس مكامن الجماليات المشاهدة ، ويسعى إلى شعرنة تفاصيلها وتكويناتها العامة .

وبين اللغة اليومية واللغة الشعرية ثنائية لدى الشكلانيين ، وينعقد بينهما تلازم في نص (الصيرفي) ، ذلك التلازم الذي يصفه ياكوبسون « ... في اللغة اليومية المستعملة للأغراض العلمية ، يتركز الاهتمام على السياق ، ويتركز الاهتمام على الشفرة المستعملة في إرسال الرسالة ، أي على اللغة نفسها ، وفي حالة الفن اللفظي ، يتركز الاهتمام على الرسالة بوصفها غاية في ذاتها »[(١)] .

وهو ما يتحقق هنا في نص الصيرفي ، وفي شعره على نحو أكثر شمولية ، فتتلازم في شعره غاية اليومية والشعرية ؛ من حيث اللغة ، التي تأخذ من التناول العرفاني للمكان سياقًا يمنحها الوصول إلى المتلقي ، وتشترك معه في وحدة تلقي النشاط الحياتي الحيوي ، وانعكاسه الصادق في الذات المتشاجرة معه ، والمؤسسة وإياه على الإحساس الفطري المجرد ، حيث « يُعَدُّ النص الأدبي تجليًا لبنية مجردة - حيث تكون ممارسة القراءة - طبقًا لهذا التصور - تنقلاً حرًا في فضاء النص ، وإسقاطًا للجانب الذاتي في هذا الفضاء النصي ، والقارئ هنا - يضطلع بتمييع دوره ؛ ليحقق نقدًا فاعلاً يجتاح القراءة المغلقة له »[(٢)] .

وفضاء نص الصيرفي هذا ، ونصوصه تناولت المكان بالمدينة بهمز نوعي استشعاري ، ورؤية تحتوي إرهاصات العرفانية ، كمؤشر مهادي أولي ،

(١) حسن ناظم ، مفاهيم الشعرية ، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم ، ص ٩٩ ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م ، المركز الثقافي العربي ، بيروت .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يستبطنه الوعي المجرد لديه ، ويتجلى في هذا التناول مسقطًا الجانب الذاتي في انحيازه إلى تفاصيل تلك الرؤية ، ويتجاوز الذات إلى مشترك رمزي ، يجمعها بالآخر القارئ ... والساكن ... والزائر للمدينة .

والمتأمل شعر الصيرفي كنتاج للمدينة – المكان والبيئة والإنسان – يلحظ البساطة المتناهية في توخي مفردات وألفاظ بعينها من هذا المعجم لبناء رسم إيقاعي مباشر ، يتناول المشاهدات القريبة بعد أن يعيد تشكيلها في مرجل الذاكرة الزاخرة بمحفوظها ، والمكتنزة بجماليات المكان الموصوف .

(حوش التاجوري) الذي يمثل وحدة سكانية متناغمة مع أجزاء المكان ، وحيزًا يمتلك خصوصيته الجغرافية والأسرية والنظمية ، عندما كانت (الأحواش) حيزًا أسريًا يمثل كتلة اجتماعية زاخرة بمظاهر البيئة الإنسانية ، وحميمية ارتباطها ، وتفاصيل علائقها .

إنها المظاهر الخاصة التي يعدها (فرانكفورت) « مظاهر محسوسة تشير إلى مواقع لها لون عاطفي »[1] ، حيث العاطفة في شعر الصيرفي عاطفة مسكونة بالمكان ، وتأخذ صيغتها الجمالية من بناه وتعابيره ، مشاهداته وموجوداته ، المتجهة صوب التلاشي ظاهريًا ، بينما تنز للذاكرة والذهنية المكونة لشعريتها الجمالية ، وهي التي يناغيها الصيرفي بشاعرية مطبوعة ، وصياغة تلتف حولها الذائقة المتلقية – مدفوعة بعشقها للمكان الذي يتموضع بدوره بنية أساسية في سياقها :

آه يا عهد التاجوري
يا مسرح أيام سروري
ذكراك تجوب عروق دمي
وتغذي روحي وجذوري
(الحجارية) نرجسها
كم غازل أحداق الحور
وحنين سوانيها يذكي
تحنان الصب المأسور

(١) دما قبل الفلسفة ، تأليف هـ فرنكفورت وآخرين ، ترجمة إبراهيم جبرا ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ٢٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويتحول المكان هنا إلى زمان يبكيه الشاعر ؛ فـ (العهد) و (المسرح) زمكانية يمثلها (حوش التاجوري) ، ويمزج تفاصيها الوجدانية بالشعرية ؛ ليعيد إنتاج نصه المكتنز بالبنى الوصفية الجمالية للمكان ، وتبرر ألم هذا الفقدان بحيثيات يعرضها المقطع السابق ، الذي يورد فيه أسماء الأمكنة (المحمودية ، الحجارية ، الصافية) بدوالها الاسمية على الحيز التفصيلي الداخلي ، في إطار المكان العام (حوش التاجوري) والتحامها بالنسيج الشعري في النص ، في تراكم دلالي لحيوية المكان ، وتداعيات ذكره ، ومحمولاته الذكروية ، التي يشي الوصف الشعري هنا ببعض مرموزاتها وإشاراتها المشاهدة ، والتي تبعث في كل جزء مسمى لذلك المكان سمات حركية فعلية ودينامية ، تنعكس في وجدان الشاعر ؛ ليرسم جمالياتها التخيلية بمزاج عشقي ، يحول ديناميتها تلك إلى إيقاعية ترددية يستجيب لها ويتفاعل معها على النحو الذي يصوره هذا النص بمزجه عناصر المكان وأجزاءه بمسمياتها بالنص الشعري وتفاصيل صياغته الفنية .

فهذا النص الذي يتخذ من (حوش التاجوري) صوتيمًا ، يغذي سياقاته الدلالية ، ويبعث في ذات السياق الشعري أسماء المواضع والأماكن المتجاورة والمتراصة في الذاكرة الشعرية ؛ ليكون للكل وللأجزاء المكانية محركاتها الجمالية الكامنة فيها كطاقة تتصورها الشعرية بدفقها الآسر ، والباعث على توطنها بروح الشاعر ، ثم ببناها المكتنزة بالقصص والذكريات ، واستحثاث الشعرية لها على تكوين جماليات صياغية ذات دلالة مفارقة وعميقة ، تدل على انزياح الشاعر المدني للمكان كمعطى أولي تنجذب إليه الشعرية عفوًا ، وتتنادى بأوصافه وجمالياته على النحو الذي تجسده نصوص الصيرفي ، ولا سيما هذا النص ، الذي يعطي للذات الشاعرة قدرة تكيفها مع (غنائية) تعيد للمكان شاعريته بوصفه علامة على تجليها في بيئته ، مولدة للخطاب الثقافي بتشكيلاته المختلفة .

إن شعر الصيرفي لا يتوفر على رؤية معاصرة في تشكيله الفني ، أو انزياحاه إلى عمق تكوينات الذات وأزماتها .. أو تشظيها ، كما لا يتعاطى فنيات بناء القصيدة الحديثة مثلما يغاير نظام القصيدة في عصره ولدى مجايليه

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الذين ابتنوا القصيدة الرومانسية والوطنية في العصر الحديث ، بل اشتغل على تأسيس ذائقة تكتته المكان ، وتستمد من تفاصيله وبناه نظم إيقاعها اللغوي والصياغي والدلالي ، بحيث تنتظم في شعريته البساطة والدلالة المباشرة ، المتكئة على فيض شعبي مستصفى من المحيط الاجتماعي العام ؛ لتحيل بنى المكان إلى شعرية يكمن عمقها في بساطتها ، وفنيتها في تحويل الحركي الحياتي ، والمشاهد البصري إلى شعري يتضام في الإيقاع النصي بحيث يتآلف مع تدرج جزئيات الصورة المشاهدة في وصفه السابق للبساتين والحدائق في (حوش التاجوري) من جداول وأشجار وعصافير ، إلى مكينة الماء وصوتها المتدرج ، واستجابة الشاعر إلى إيقاع هذا الصوت ، وتحويله إلى صوت شعري (ومكينتها تقرع دن دن) ، وبقدر صدقيته في التفاعل مع هذه المشاهدات المعبرة عن جماليات المكان ، يعيد رسم المشهد البصري بفنية شعرية مقاربة للذائقة التي يختارها وعيه .

ولعل معجمه الشعري يتوافر على قدر كبير من هذه النماذج الشعرية المرتهنة للمكان بوصفه محركًا لشعريته وفاعلاً في الاتساق معها ؛ ليصير شعره وثيقة مكانية ، تعيد إنتاج فاعلية المكان في الوعي المجتمعي ، وتحوله إلى مشاهد مكتوب بصياغة شعرية وبذوق جمالي واع .

ولذلك كانت بساطة معجمه الشعري منسجمة مع الموجودات المعاينة ، ومستجيبة لبنى المكان وأنظمته وتفاصيله ؛ لتكون هذا الرصيد الشعري ، الذي يدل على فاعلية بيئة اجتماعية ، تنتج خطابها الشعري بشروطها الجمالية ، المستصفاة من البيئة ذاتها .

وأسماء الأماكن الواردة في شعر حسن صيرفي وجيله اللاحق محمد هاشم رشيد ، ومحمد العيد الخطراوي ، وما تلاهم من أجيال ؛ عبد المحسن حليت ، وبشير الصاعدي ، تعزز ما نزعمه من اكتناز المكان (المدينة) بقيم جمالية في المحتوى التكويني العام ، والنسيج الاجتماعي المحيط بها ، والمعبر بحركيته كفعل لتعبيراتها ، ومساقات أبعادها في الخطاب الثقافي العام ، المتعالق مع الحركة اليومية ، والمؤتلف معها على نحو يمثل رصيدًا معرفيًا ، يستقي خبراته وتراكماته من المكان وبيئته الإنسانية ؛ ليستثمر الشاعر تلك التراكمات ،

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويمثل تلك التأثيرات للحد الذي تستحيل به إلى بنى شعرية يتكثف حضورها في نصوص شعراء المدينة كرمز دلالي بيني يكتنهه الشعرية من بنية المكان .

وإن كانت تلك الألفاظ والمفردات علامات اسمية للمكان في شعر الصيرفي حتى لا يخلو أي من نصوصه من اسم جبل أو واد أو شارع بالمدينة ، حتى صار شعره بنية جمالية تتعالق فيها الأمكنة ببوح الوجدان وصبابات ألفته التي تعبر بها شاعرية الصيرفي بسياق يأتلف مع مفردات وألفاظ التعبير اليومي ، وعلامات المكان الاسمية بوصف هذه العلامات بعدًا من أبعاد الدلالة لتلك الألفاظ والعلامات التي تعبر عن المكان ، وتدل على هويته .

وهي « ليست بدعًا من غيرها من ألفاظ العربية ، التي تحض بصفات تهيئها للشاعرية ، الأمر الذي يعود في حقيقته إلى طبيعة هذه اللغة في كيفية تآلف أصواتها وبناء كلماتها ، وقابليتها لكل تأليف موزون ، ويضاف إلى ذك ما تحمله اللفظة العربية من إمكانات دلالية وإيحائية ، وما إلى ذلك مما يعد طاقة شعرية كامنة فيها ، بحيث تعد درجة أولى في طريق الخروج من الاستعمال الإيصالي المحض ، إلى إضافة مسحة من الجمال على الكلام ، وهو ما يتحقق بشكل أكثر وضوحًا في الاستعمال الشعري الجمالي »[١] .

وتحقق قصائد الصيرفي هذه الرؤية التي يطرحها الدكتور جريدي المنصوري ، حيث تستحث المكان على النطق بمكنونة الجمالي ، ويضعه في السياق الشعري المكمل لضرورات إبراز صفاته وحيوية تفاصيله .

وهناك (الصافية) كانت

بركتها تغرق في النور

والريح تدغدغ صفحتها

بروائع فن التصوير

والسور يؤمن نزلتها

من عين حسود وغيور

---

(١) جريدي المنصوري ، شاعرية المكان ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر ، جدة ، ص ٧٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فإعادة اكتناه المكان بأدوات الصيرفي الشعرية ، وتصوره لتاريخه القريب ، واستدعائه لموروثه الجمالي الصرف ، ونحوه منحى عفويًا للحركة العادية المباشرة في تتبعه الدقيق لجزئيات (صورة بركة الصافية) ، وحركة الريح في مائها ، وإحاطتها بالسور المؤمن لها (من عين الحسود والغيور) يستحلي ويبعث الفاعلية الشعرية المتصورة في هذه الجزئيات التفصيلية ، والتي يحقق الخيال الجمالي للشاعر صيغتها النهائية كما تتبدى في هذا النص ، ويمدها ببعد تأثيري لدى المتلقي ، ووصفي جمالي لدى الشاعر الذي يستجيب لماهية حقيقتها الفعلية ، ومن ثم يعبر عنها في صياغة شعرية غنائية تتبع جزئيات الصورة المشاهدة ، وتعيد لها ألف تناول شعري ، ينهل من ذات شاعرة يكتنفها عشق المكان على النحو الذي تصوره نصوصه الأخرى ، مثلما أخذ (وادي العقيق) جزءًا كبيرًا من اهتمام الصيرفي ، حيث لم يتجلى ظهور العقيق شعريًا لأي من شعراء المدينة كما هو لدى الصيرفي ، الذي يصف وقوفه متأملاً الوادي عند الغروب :

وقد وقفت في ضفاف المسيل
عرائس نخل العقيق الجميل
تحملق في السيل محزونة
وقد خضبته دماء الأصيل[1]

فالعقيق لدى الصيرفي ذات حيه ، يتجانس معها ، ويتآلف ويتفاعل مع تغييراتها ومناخاتها اليومية والفصلية ، ويحاكي مكوناتها من (ضفاف ، ونخل ، وسيل) ويخاطبها مستحثًا فعلها الكوني على مشاركته فاعلية الحياة ذاتها .

فالفعل الشعري المبدوء هنا بالوقوف كرمز ابتدائي ، يستشعر تشكيل الصورة الجمالية للمشاهَد المنظور في تلك اللحظة ، وقد أنسن (نخل العقيق) ليتمادى في نقل الصورة من حقيقتها المجردة إلى مجازها الاستشعاري الذي يعيه الشاعر ويتأمله ثم يعبر عنه .

---

(١) حسن مصطفى الصيرفي ، دموع وكبرياء ، مجموعة شعرية ، مطابع دار الكتاب العربي ، مصر ، بدون ذكر سنة الطبع ، ص ٨٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وإلى جانب تكوين (العقيق) الجغرافي وهويته المكانية في سياق (المدينة) المكان ، فقد كان ملاذًا لأسرة الوادي المبارك ؛ تعقد على ضفافه جلساتها ، وتدار نقاشاتها ، مؤشر على البعد الثقافي المهم الذي وعاه الصيرفي شعرًا في قصيدته (ليالي العقيق) .

يا ليالي الصيف في عروة في حضن المسيل
و (السواني) تنعش السمار باللحن العليل
والنسيم العاطر المغمور في النور الضئيل
من كوى الغيم تدفق ، يترقرق
كلما البدر خبا واختلسا
ذلك الوادي وهذاك المسيل
كم قضينا فيه أوقات الأصيل
نرقب الشمس التي مالت على
قمة الجماء تومي للرحيل
والدنا جادت بما تملكه
وهبتنا كلما تدركه
نصنع البهجة من خاماتها
والذي فيه قذى تتركه

الربيع الضاحك الفتان
تدعوه رباه
والليالي البيض
والضفة في وادي قناه
والسواني
هتكن ستر حناني
فلماذا لا نلبي ؟
إنها مأساة حبي[1]

(١) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فهذا النص الذي يزاوج تشكيليًا بين التناظري والتفعيلي ، - يعد والنص الأول (على أطلال التاجوري) - أطول النصوص التي كتبها الصيرفي على الإطلاق ، حيث تتجاوز صفحاته ثمانية عشر صفحة .

وفي سياقاته المقطعية مزج للذاتي الذكروي بوصف المكان ومشاهداته المنظورة ، ترتيل غنائي رومانسي ، يرد فيه ذكر الأماكن المحددة تاريخيًا ، كمعالم للمدينة المنورة ، وهي : (العقيق ، الجماء ، وادي قناة) فتشي الدلالة الشعرية في المقطع السابق في المكان (السامرون في الوادي) ، وبين الوادي ذاته (العقيق) وتفاصيل جماليته المشاهدة والحية ، في إحاطة المقطع بأبعاد التكوين العام لمدى الأفق المنظور المحيط بالمكان الذي يكشف عن مكانين آخرين في ذلك الأفق ، وهما : (قمة الجماء ، وادي قناة) ، حيث يلم المقطع بهذه التفصيلات المكانية ، التي تعادل في دلالتها الشعرية جمالية الإحساس الشعري الإنساني بها ، حتى (تصنع البهجة من خاماتها) كما عبر الشاعر ؛ لتصير (البهجة) نتيجة حتمية لهذا التمازج والتعالق الروحي بين الإنسان والمكان .

لقد نشأت فكرة اختيار ضفة وادي العقيق مكانًا لأسرة الوادي المبارك من اقتعاد أعضائه ذات مرة على ربوة في تلك الضفة التي يصفها حسن الصيرفي بقوله :

على ربوة عانقتها الرمال ... وحاك الربيع لها حاشية
ودب العقيق على ركبتيه ... ليلثم أقدامها العارية[1]

فانبثق من هذين البيتين فكرة اختيار العقيق مكانًا للمسامرات ، وكان الصيرفي مولعًا منذ صغره بهذا الوادي وروعة تكوينات ضفافه وربوته ، مثلما كانت الأمكنة المدنية (قربان ، قباء ، بطحان ، الجماء ، السيح ، المسيل) أيقونات تحتل الخطاب الشعري لدى الصيرفي ، وتمثل قيمة الثقافية المعمية ، ليشيد حولها ومن خلالها مضامين شعرية ، تحيل إلى استقراء القيم الجمالية لها محركات باعثة على توطين الشعرية مدينيًا ، والإشارة إلى تفاصيل جغرافيتها ومناخها الإنساني .

(١) هذا البيتان سمعتهما منه مشافهة مساء الثلاثاء الموافق ١٤٢٣/٦/١٨هـ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويمثل الإحصاء العددي لمفردة (العقيق) في شعر الصيرفي دلالة على هيمنة روحانية المكان في شعره ، فقد تجاوز ورودها أكثر من (اثنتي عشرة مرة) في ديوانه المطبوع (دموع وكبرياء) .

ولم يفضله شاعر مدني في تعدد الاستخدام الشعري للعقيق أو في صنيع شعري يستلهم المكان على النحو الذي يمثله الصيرفي .

ويشير الدكتور محمد العيد الخطراوي إلى شيء من ذالك بقوله :

« وشعر الصيرفي تفوح منه أشذاء البيئة المدنية بصورة ملفتة ، وتلك ميزة تدل على صدق فني ظاهر ، وهو شاعر لم يستعر تجاربه من قراءاته ، بل هو ابن البيئة التي صنعته وشب بين ظهرانيها ، فالقصر ، والجماء ، وقباء ، وأحد ، والعقيق وغيرها هي مسرح أشعاره ، وملتقى أخيلته ، ومناط آماله »[(١)] .

وهي التي يموضعها الشاعر في السياق النصي المؤطر بشاعرية التناول ، التي تستقي من موصوفاتها المكانية السابقة نسيجًا شعريًا تعيد الذات بناءه صياغيًا بوعي معرفي لأهمية حضوره في السياق الشعري ، وهو الوعي الذي يتماهى ضمنًا مع شعرية الصيرفي التي أسلفنا عنايتها بالمباشر والعيني ، واستبصار محتواه الجمالي ، وإعادة تكوينه بالمزاج الشعري الذي يتوخى ومض الفكرة الشعرية في النص ، واحتواء لحظتها .

وعناية الصيرفي الشعرية بتتبع جزئيات الصورة المشاهدة وصياغتها شعريًا تتناغم مع خطة البياني الشعري ومعجمه البسيط في قدرته الإيصالية ، ومحاولته أنسنة الموجودات المشاهدة والمعاينة في المشهد المكاني وأفقه وبناه المجاورة ، وحقنها بفاعلية تغييرية ، مثلما استبصر في (العقيق) كائنًا إنسانيًا ، حاوره ، وخاتله باحتواء مباشر لذائقة التلقي التي تتناغم مع الترتيل الغنائي في إيقاعاته المتنوعة من التناظري إلى التفعيلي ، مع الاحتفاظ بالوحدة الوزنية لجزئيات السطر الشعري ، وفي تحويله المنظور المجرد إلى شعري حدسي ، وربطه بصياغة إبداعية ، تعزز من فاعليته في توليد الدلالة الشعرية المستوحاة من فيض

(١) محمد العيد الخطراوي ، شعراء من أرض عبقر ، دار الأصفهاني للطباعة بجدة ، منشورات نادي المدينة الأدبي ، ص ١٠٣ ، الجزء الول .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الرومانسية وأبعادها المتعارف عليها ، وهو ما ينحوه الشاعر محمد هاشم رشيد في اصطفائه (العقيق) مكانًا استقى من وحيه قصيدته (على ضفاف العقيق) ، والتي يقول في مطلعها :

في شاطئيك عرفت سر وجودي ... وقبست من ألق السماء نشيدي
ووقفت في ثبج الرؤى أرنو إلى ... رقص السنى .. في موجك العربيد
ويداك تحتضن الصخور فترتمي ... في لهفة المتشوق المعمود
ورأيت أطباق الجبال تراقصت ... نشوى بإيقاع الصدى الفريد
والعشب رنحه رحيقك فانتشت ... أعطافه في الشاطئ المنضود
يا شاطئ الأنغام ، والأحلام والأفراح ... يا سر الهوى بقصيدي[1]

وتتردد ألفاظ أمكنة المدينة ومعالمها في شعر محمد هاشم رشيد ، ولا سيما في ديوانه المسمى بهذه القصيدة ، في تناول تأملي وجداني يزخر بعاطفة جياشة تجاه تلك الأمكنة ، والتي يأتي (العقيق) رمزًا لها ... تحيل إليه بعبقها الروحي ، ويتكامل معها على نحو يؤصل أمكنة المدينة في وجدان شعرائها .

فقد كتب الشاعر محمد هاشم رشيد تمهيدًا نثريًا لديوانه (على ضفاف العقيق) ليرهص للقارئ بمعنى هذه الولع الأبدي للمكان وكأنه يؤمن أن النثر يؤاخي الشعر في إبراز مكانة (المكان) ، وشعرنة تكويناته بوصفها الجمالي ، حيث كتب :

« هنا ... إلى الغرب من مدينتنا الحبيبة ، يمتد (وادي العقيق) ..

هذا الوادي الجميل ، الذي وشته يد الخالق العظيم بأرق الصور ، وأبدع المفاتن ، وأروع الألوان .

وهنا ... على صدره الحالم ، حيث تضطجع الرمال ، شاخصة بأبصارها إلى الأفق :

الأفق الساحر ... الذي يتشح بالغيوم ، ويبتسم بالنجوم ، ويتهلل بالترانيم السماوية العذراء .

هنا .. حيث غنى ابن سريج ، ومعبد ، وابن عائشة ، وترنم ابن الدمينة ، والدارمي ، وابن أبي عتيق ... والأحوص .. في أجمل وأزهى عصور التاريخ ، واروع وأبدع أيام العقيق »[2] .

(١) محمد هاشم رشيد ، المجموعة الشعرية الأولى ، منشورات نادي المدينة الأدبي ، الطبعة الأولى ، ص ٣٦٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويعتبر رشيد من الجيل المخضرم ، الذي عاصر بدايات الحركة الأدبية في المملكة بعامة ، والمدينة خصوصًا ، مثلما تلاقى بشكل غير مباشر مع الحركة الشعرية المعاصرة .

ويكاد رشيد يتتبع صنيع الصيرفي ، ويتغذى من مدرسته الشعرية الغنائية في تلمس المشاهد البصرية ، والتماهي في إحالاتها التأملية .

واعتباره (العقيق) منهلاً شعريًا ، تكونت على ربواته أجزاء من ثقافتهم ، وتمازجت تجاربهم الشعرية بفيض تفاصيل طبيعته الجميلة ، فانساقوا طربين إلى محاكاته شعريًا بالصورة التي عبروا عنها بما كتبوه من نصوص .

ويغايرهم على نحو ما الشاعر الشاب بشير الصاعدي ، الذي يحضر بالمكان برؤية معاصرة في اتكاء وعيها على شعرية تجاذب المكان ذكرياته الغابرة :

عقيق كما بنينا من أمان ... فما ابتلت من الأحلام ريق
دهى الإمحال عشبك والأماني ... أجب أين الحبيبة والبروق
أعود إليك يدفعني حنيني ... فتعرفني الحجارة والطريق
تنافسني فإن سطرت بيتًا ... يهب نسيمك العذب الرقيق
يغازلها شذى النعناع حينًا ... وأحيانًا يغازلها الرحيق
يضوع الدوش منها والحساوي ... وعرق عفافها فيها عريق
أعند السيل موعدنا سنأتي ... ويجمع بيننا حب عتيق
عقيق لو يعود لنا صبانا ... أيفترق الرفيقة والرفيق
أتذكر أيها الوادي غريقاً ... قديمًا في هواك أنا الغريق[1]

ونلمس اتصال بنية المكان الذهنية بين شعراء من فترات تاريخية متباعدة ، فبشير الصاعدي ، المولود في المدينة سنة ١٣٨٢هـ ، وبينه وبين الصيرفي ، وبين (نصيهما) مسافة تاريخية قوامها خمسون عامًا تتماع في متن الوعي بالعقيق ذات المكان وروحه ، ليتصل (العقيق) المكان بذاكرة الوعي ذاتها ، وينجز الصاعدي نصه بالأدوات العرفانية ذاتها ، مع المفارقة في الصياغة الشعرية لدى الصاعدي في ابتناء التناظرية ووحيها الغنائي ، بينما تأتلف في تجذر موجودات

(١) نص مخطوط تسلمته من الشاعر يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الثاني ١٤٢٣هـ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المكان البصرية (السيل ، الوادي ، النعناع ، الدوش) وتلك هي المؤشرات اللفظية اليومية التي يتعالى أفقها اليومي شعريًا في هذا النص ؛ ليؤسس للذائقة المكانية كنها شعريًا يتوخى جماليات المكان ، ويتعمد التآلف مع بنيتها الشعرية في خط بياني يحتشد بالصورة والمناجاة ، ولغة الوجد الفيض العاشق للمكان متصل بتجربة الشاعر عبد المحسن حليت مسلم ، المولود في المدينة المنورة عام ١٣٧٧هـ[١] ، والذي غادر المدينة سكنًا منذ عقدين من الزمان ، إلا أن ذائقته الطفلية التي شربت حليب الحب المدني للمكان ، تظل في نصوصه الشعرية ، ولا سيما مجموعته الأولى (مقاطع من الوجدان)[٢] ، والتي احتوت إشراقات نصية ، كونت المدينة المكان وجودها المضموني والدلالي .

ففي نص (أطلال) يساءل بساتين المدينة في (قباء) و (قربان) ويستغرق ذاته المفتتنة في سحر ورودها وجداولها وأطيارها :

هذي (قباء) وهذا سحر (قربان) فاقطف ورود الهوى من كل بستان
واشرب من الماء واغرف من جداوله وانس الهموم وسر في عالم ثاني
واسمع من الطير ألحانًا منغمة تجلو المشاعر من هم وأحزان
فإن شدت أطربت من قد شكا سقمًا وعزَّت الروح في رفق وتحنان
وإن بكت هيجت في النفس لوعتها وذكَّرت قلب إنسان بإنسان[٣]

ويواصل الشاعر هذه المطولة ، فينعي تغير وتبدل هذه الأماكن ، وزحف البنيان إلى تلك المناطق الزراعية ، وانقلاب طبيعتها وبهائها الفتان إلى عمران صامت موحش بذات المساق الوجداني الذي أصله حسن صيرفي ، وجعل من البنى الجمالية الطبيعية بالمدينة موئلاً ومنبعًا لشعرية مبدعيها .

وعبد المحسن حليت الذي تنامت تجربته الشعرية بعد هذا النص المؤرخ بعام ١٤٠١هـ مع محافظته على النظام التناظري في قصيدته ، وتلوين سياقها بروح معاصرة يعود ليكتب نصًا بعنوان (سيدة الدنيا) بعد ذلك النص بعقد ونصف من الزمان ، ليهتف بسياق حضاري ، تستحثه المدينة على التكون والانبناء في

(١) عبد المحسن حليت مسلم ، مقاطع من الوجدان ، مجموعة شعرية ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ، مطابع دار العلم للطباعة والنشر ، جدة ، الغلاف الأخير للمجموعة .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

خطاب شعري لا يكترث بالمشاهدات بقدر ما يؤصل مفهوم الحضارية بلون إشراقي عشقي ، يستلهم تاريخية المدينة المكان ، يحتوي محايثات عشق القلوب لها يلخص مفاهيميًا فلسفة وطنية المدينة لكل محبيها :

أنا المدينة من في الكون يجهلني ... ومن تراه درى عني وما شغلا
تتلمذ (المجد) طفلاً عند مدرستي ... حتى تخرج منها عالمًا رجلا
فتحت قلبي (لخير الخلق) قاطبة ... فلم يفارقه يومًا منذ أن دخلا
وصرت (سيدة الدنيا) به شرفًا ... واسمي لكل حدود الأرض قد وصلا
ومسجدي كان .. بل ما زال أمنية ... تحبوا إليها قلوب ضلت السبلا
فكل مغترب داويت غربته ... مسحت دمعته .. حولته جذلا
وفي هواي (ملايين) تنام على ... ذكري وتصحو على طيفي إذا ارتحلا
تنافسوا في غرامي .. أرسلوا كتباً ... وأنفقوا عندها الركبان والرسلا
أنا (المنورة) الفيحاء ذا نسبي ... إذا البدور رأتني أطرقت خجلا[1]

فتنامي تجربة الوعي الشعري لدى عبد المحسن حليت بفعل التقادم الزمني ومحاياته الثقافية الأخرى تتلون هنا بالمزاج الإشراقي في أصدق تجليات عشقيته .. وتحتوي في ضمنياته كما في هذا المقطع دلالة المدينة المنورة ، المكان في نفوس الملايين ، وعنوانيته المشرقة في سيرة الهجرة النبوية ، ويقينه في استقطاب أفئدة المحبين ، وقلوب الضالين ، وكبد المتعبين ، ونورانية عالميتها ، كونها مصدرًا للإشعاع الفكري لدى المسلمين .

إنها كما يصفها دواء المغتربين ، ووطنهم الذي يشعل الجذل والفرح في نفوسهم .

كما يرمز إلى تراكم التأليف حولها ، من باعث عشقي مختلف ، ومهيمن في حضوره على ما عداه ؛ لتبزغ (المنورة الفيحاء) قمرًا ... تطرق البدور خجلاً من ضوئه المتبدي في الوجود .

وشعرية حليت ، تستفيق بفعل البعد عن المدينة ؛ لتتناغم مع مفهوم الإشراقيين ، في أن (القرب حجاب) عند ذوي الشوق فقط .

فالشوق عندهم : إنزاع قلبي إلى لقاء الحبيب ، لكنه يزول برؤية الحبيب ولقائه ، وذلك خلاف للاشتياق الذي لمسنا تجلياته عند الصيرفي ورشيد .

---

(١) قصيدة (سيدة الدنيا) ، مجلة أمانة المدينة المنورة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فالاشتياق في اصطلاح الإشراقيين : ارتياح القلب على دوام الاتصال بالحبيب ، ولا يزول أبدًا إلا بطلب الروح الزيادة في كشف الأسرار والقرب إلى الأبد ، لتعيد صنيع هذا النص ، الذي تطلق قافيته الممدودة ، آمادًا غنائية ، تلتف حول مفهوم شمولي حضاري في العشق الكوني (سيدة الدنيا) كما سماها .

وتصوغ جماليات الخطاب الشعري من جمالية المكان الذي ينبثق وحيه من ذاكرة انبنت ركائزها على استيطان هذا الجمال ، واستثمار فحواه صياغيًا ، عبر هذا النص .

كما يرمز إلى تراكم التأليف حولها ، من باعث عشقي مختلف ومهيمن في حضوره على ما عداه ، لتبزغ (المنورة الفيحاء) قمرًا .. تطرق البدور خجلاً من ضوئه المتبدي في الوجود .

إن الجمالية التي نتوخى تفاصيلها في قصائد شعراء المدينة ، والتي قدمنا نماذج من إنتاجهم ، تعكس مدى تصور بنى شعريتهم للمكان كطاقة زاخرة وباعثة على التأمل ، واستيلاد حوافز ذاتية في دواخلهم ، يعكس المكان ضراوة انسجامها معه ، وانبعاث تصورات الشعرية من نوعية الأمكنة التفصيلية بالمدينة ، وتكوينها للمدينة (المكان العام) .

وبحسب (تودوروف) : «فإن مجيء الشعرية طرح من جديد المسألة المحتومة : قيمة العمل ، ونسعى مستهلين مقولتنا لوصف بنية عمل معين وصفًا دقيقًا حتى نواجه الاحتراز نفسه المتعلق بإمكانية تغير الجمال »[1] .

ومجيء شعريات من أسلفنا ذكرهم من شعراء المدينة تستولد محركات شعرية لكوامن الجمال (المشاهد / والمتشاغل) مع أوصافه لدى حسن صيرفي ومحمد هاشم رشيد .

و (مسائل / ومستوحي) بفاعلية البيئة المكانية لدى عبد المحسن حليت مسلم وبشير الصاعدي .

(ويكون المشاهد المستوحي) رؤية متضامنة في أبعادها الشعرية لجماليات المكان الملح على الاستقراء والتأمل والتدوين .

---

(١) تودوروف ، تزفيتان ، الشعرية ، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، ص ١١٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة